القلب الشـــاعر

للأستاذ دريني خشبة

جميع هذا العالم الأثيري الذي لا نهاية له ، بكل ما يظن فيه من سُدُم وأنجم وأفلاك ، وكل ما يروح في كواكبه ويجيء من خلائق ، وكل ما يسبح في أجوائه من ملائك ، ويصدح ملؤها من طير ... كل ذاك ، كل ذاك قطرة من بحرك الزاخر أيها القلب الشاعر !

أنت أكرم خلق الله على الله ... لأنك تتسع لكل ما لا يتسع له غيرك مما صنعت يداه

تتسع لما تضيق به العقول الضالة التي تتعالى فتنكره ، لأنها تُحصي عليه كل ما عُمِّيَ عليها فتجعله في منطقها تضارباً ... وما دام هنالك تضارب فثمة جحود ونكران

تتسع لهذا كله لأنك لا تعرف الحدود ، وهي مقيدة بالحدود ... أنت حر طليق ، وهي ذليلة مستعبدة ترسف في الأصفاد والقيود ...

أنت أكرم خلق الله على الله ، لأنك تُلجم هذه العقول دائماً حينما تُطلق عليها عواطفك فتلسعها كما يلسع النحل ، ثم تُسائلها ساخرة : ما الحياة وما الجمال وما الحب ؟ ! وما وراءك أيها العقول ؟ منذ الذي يُمسكك فلا تكوني هزاء ومجنوناً ؟ منذ الذي يمسك الأرض والسموات أن تزولا ؟ وما سر هذا الجمال الذي يبهرك ويورث منطقك البَكَم ، والذي يملأ الأرض والسموات ؟ ما سر هذه الألوان التي تُذهِّب الشفق ، وتفضّض السُّحب ، وتُموِّه صفحة اليمّ ، وأديم السماء بأصباغ البنفسج ، وتُزخرف بالدمام ثغور الزهر ، وتغازل بالسحر خدود العذارى ، وتملأ بالفتنة عيون الحسان ، وتُنضّد بالجُمان ثنايا الغيد ، وتطبع بخاتم الحسن نُدِيَّ الكواعب ؟ !

ما سرُّ هذه الألوان يا عقول ؟

وما سرّ الجاذبية التي تربط الدُّنا بالدُّنا ، والعوالم بالعوالم ؟ ! الجاذبية التي هي سر الحياة وبقاؤها ، واستمرار الوجود وقيامه ؟ ! الجاذبية التي تشدُّ بين العيون والعيون ، وتُعاطف بين القلوب والقلوب ، وتربط الأرواح بالأرواح ؟ !

ما سر تلك الجاذبية التي تسيطر على سكان المدينة وسكان

أنا أنتظر مساجلة دولية تقول فيها مصر إنها مصر ، ويقول فيها النيل إنه النيل

فتعالوا ياهؤلاء ، إلى كلمةٍ سواء !

عتاب !

هو عتاب الطبيب الذي يُذكر عند المرض وينسى عند العافية

هو عتاب الصديق الذي يُذكر في البأساء ويُنسى في النعماء

هو عتاب النهر الذي تشتاقه الأرض في الصيف وتنساه في الخريف

هو عتاب من لم يبق له منكم غير العتاب !

وكيف أعتب على من يستغني عن نور القمر بشعاع السِّراج ؟

جرِّبوا حياة العقوق ، جرِّبوها ، بعد أن جربتم حياة الوفاء لتعرفوا ما طعم الشهد وما طعم الصاب !

إن كان غرَّكم الصفح فلا صفح ، وإن كان غرَّكم الدمع فلا دمع ، فقد صِيغ قلبي من ضمائر الجبال

تلك أيامٌ خَلَتْ ، وأنا أضِنُّ عليها بأن تضاف إلى التواريخ ، ولن أعترف بأنكم أمرتم روحي لحظة من زمان

فإن راعكم وفائي لدار الهوى بالمرور عليها في الغدوّ والرواح ، فلا تعجبوا ولا تظنوا أني أستهديكم تحية يجاد بها على عابر الطريق ، وإنما هي لفتة أريد بها أن تفهم الحجارة أني لم أكن في هواي من العابثين

إن دار الهوى لن تعرفكم بعد اليوم ، ولن تراكم إلا أبدانا بلا أرواح ، ولن تجود عليكم بالسعادة والصفاء ، ياجيرةَ آدم حفظ الجميل

سيصنع الدهر ما يصنع ، وسيفعل الغدر ما يشاء ، وستفترون عليّ بقدر ما عندكم من كيد وجحود ، ثم يبقى وفائي لكم ولدار الهوى ، ياجيرةَ أطفاهم الجمال فتاهوا في صحراوات الدلال

لن تضيعوا من يدي ولو فررتم إلى آفاق المريخ ، فارجعوا طائعين قبل أن ترجعوا كارهين ، فسرعة الظبي في الجرى تنبهر حين يلمح وجه الأسد الصوّال

زكي مبارك

الخيلة وما تعج به الغابة ، وما يأوى إلى الكهف ، وما يخفق بجناحيه فى الهواء ، وما يتخذ سبيله سَرَباً تحت الماء ؟

وإلى أن تجيبي فاعزُبي ، ودعى القلب الشاعر يُغنى !

* * *

أيُّ القلوب يحب كما تحب يا مستودع الشعر ، وأيها يرحم كما ترحم ، وأيها يضطرب كالعاصفة كما تضطرب حين يحزُبك أمر ، أو حين تتحرق أسى على الإنسانية الضالة ؟

أى القلوب يفيض بالخير والنبل كما تفيض ، وأيها يبتسم لما يصيب الناس من سعة كما تبتسم ، وأيها يعبس وينقبض لما يؤودهم من شدة كما تعبس وتنقبض ؟

إنك تود حينئذ لو استطعت فسخرت لهم الجبال ذهباً ، والتراب فضة ... أو سخرت لهم الريح فأمطرتهم دنانير ودراهم ، أو أمرت البحر فخار ماؤه لبناً وعسلاً مصفى !

إلا أنك تعجز أيهـا القلب النبيل ... يا أكرم المخلوقات . فيذهب بك صاحبك ليجلس فوق ربوة ، أو فى منعزل من الناس ، لتخفق له ، وتغنى له ؛ وتنظم له ألحانك كي يهديهـا بعد إلى الناس . إلى الجائعين الظامئين الذين أضرت بهم المسغبة وأذاب أبدانهم الطوى ، وأضرت بهم تلك الريح العاصفة التى تلفح الإنسانية الضاوية وتتلقفها بالموت فى كل مكان

بَيْد أنك تعود أدراجك لتبكى يا أكرم المخلوقات ، لأن ألحانك لا تخفف من ألم الجوع ، ولا تروى من حر الظمأ ، ولا تستطيع أن تنسج نفسها ثوباً يرد عادية البرد ، أو يصد لفح الشمس ؛ ولا تستطيع الأم الفقيرة المعذبة أن تشترى بمعظم فضائلك قدحاً من اللبن لطفلها الباكية التى يصهر الجوع أمعاءها ؛ ولا أن تبتاع بالباقى أرغفة من نخالة هذا العصر الأسود تملأ بها معدات أطفالها الآخرين

* * *

طالمـا يضحك العلماء من أحلامك ، والأغنياء من فقرك ، وطالما يستهزىء الخبراء فى الأرقام بعواطفك التى لا عدد لهـا ، لأنها عداد كل شىء ...

غير أنك تضحك منهم جميعاً ، وتستهزىء بهم جميعاً ؛ لأنك تعرف أنهم يعيشون اليوم ثم يموتون غداً ، فلا يذكرهم أحد ...

فهم ينتهون كما انتهى ألف مرة الطعام الذى طعموا ، والشراب الذى شربوا ، والملابس الزهية التى طالما تاهوا بها ودلوا ... وكما انتهت الأرقام الضخام التى طالمـا زهوا بها السجلات

أما أنت فتعيش اليوم ، وتعيش غداً ، ولسوف تعيش إلى الأبد . تعيش اليوم فى أفئدة المعجبين بك ، أولئك الذين تواسيهم دائماً بأناشيدك ، وتراأب جرحهم بأغاريدك ، وتجفف دموعهم بألحانك ، وتبدل جحيم الحياة من حولهم جنات تجرى من تحتها أنهار ـ حنانك ، وتتفجر فيها أمواه عطفك ، وتصدح فى أفنانها بلابل شدوك ، ويحمل إليهم نسيمها عذب غنائك فترد إليهم السعادة ، وتحيى فى نفوسهم الرجاء ، وتنعش فى قلوبهم خامد الأمل ، وتصلهم بعد القنوط بحبل من الله ، فتستنير بصائرهم ، وتهدأ أعصابهم ، وتفيق أرواحهم الخافقة من سكرات الجوع والظمأ والعرى بذكر الله ...

وأنت تعيش غداً بمثل هذا ، ولسوف تعيش إلى الأبد بمثل هذا . ستعيش فى قلوب القافلة التى يجد بها السير . القافلة التى ركبها المئون ، فيتصل به المئون والمئون حتى يجىء أمر الله ... ستعيش كما يعيش الصديقون والشهداء وقادة الإنسانية . قادتها إلى الطوبى التى طالما غازلت خيالك ، وعمرت أحلامك ، ورفّت كما ترف الجنة تحت شباة قلمك وفى صميم سُويدائك

ألا ما أسفه الذين ضحكوا منك ، واستهزأوا بك عند ذاك !

لقد قرغت الدنيا منهم ، بقدر ما امتلأت بك ، وهبطوا إلى التراب وسموت إلى عليين !

* * *

يمشى صاحبك أيها القلب الشاعر كما يمشى الناس فى الحدائق والطرقات ، ويقف كما يقفون عند شاطىء النهر ، وحفاق الغدير ، ويرى كما يرون بعينين ، ويتكلم بلسان وشفتين ، ويسمع بأذنين ، وله يد كما لهم أيد تمتد إلى طعام وإلى شراب وإلى ... كتاب

إلا أن صاحبك حينما يمشى فى الحديقة يكلم الورد ، ويكلمه الورد بلغة قد لا يعرفها الناس وقد لا يسيغونها ؛ لأنها لغة صامتة تتفاهم بها الأرواح التى من قبيل روح الوردة وروح الشاعر ...

ثم هو يكلم كل ما فى الحديقة ، ويفهم عنه ما لا يفهم الناس

إن الحديقة أغنيته الكبرى الخالدة ، التي يتنفس فيها كل شيء ، ليجاوب نبضاتك ، ويرقص على خفقاتك ، وليتحد بك

فإذا مشى صاحبك في الطرقات ، وَثبْتَ إلى عينيه أيها القلب ، يا أكرم المخلوقات ، وكما تثب إلى مسمعيه ، كي تنطبع على شغافك آلام القافلة المتعبة ، وتستقر في جوانبك أدمعتها ، فتطرب لها بما ترقرق من غناء وحداء

أما إذا وقفت عند شاطئ النهر أو حفاف الغدير ، فإنك تُسبِّح لله وتُثني عليه ، فتقبِّل قطرات الماء لتصلي معك ، وتنشد إنشادك ، وتتمنى لو تقبل قدميك ، أو تقبل فك ، لتمتزج بروحك العلوية التي هي بضعة من الروح الأكبر ، وقبس من نور الخلود ، ونفس من أنفاس الرحمن ..

وإنما تتمنى قطرات الماء أن تصنع ذلك لأنها تحس كأنما تنبع من أعماقك ، وتنسكب من نفسك ، كما نبعت من السحاب الذي باركته يد الله ... وانسكبت من القمة الشامخة التي يداعبها البَرَد ويغسلها الثلج ...

ألست المرآة الصافية التي تجلو جمال هذا الكون للناس ، والعندليب المجلجل الذي يفتح آذانهم على ألوان من مباهجه لم يكونوا يفقهونها لولاك ؟!

ألست الناي الخالد الذي يسكب في أسماع الزمان ألحانه فينشط الركب ، وتتجدد عزمات القافلة ، وتغني السنون ، وترقص الأيام !

ألست الطبيب النطاسي الذي يأسو جراحات الحزاني ، ويعالج لواعج المحبين ...

* * *

وقد تظمأ مع ذاك يا أكرم خلق الله ، فإن اشتد بك حرُّ الظمأ فاشرب ما شئت من سلافة العيون ... العيون الخُضر الرمادية ، والعيون الزرق اللازوردية ، والعسلية الصافية التي فيها من مغناطيس الكهرمان ... واشرب ما شئت من العيون السود التي فيها ذاك المزيج العجيب من الدَّعج والحَوَر والوطف فما تسكر به وتسحر وتأسر .. العيون الجميلة النجل التي تغمزك في هوادة ورقة ورفق مرة ، وفي عنف وقسوة مرات ... وهي في الحالتين أمواه حياتك ، وحدائق أحلامك ، ومشارق خيالك ، ومهابط وحيك ، ومراتع فتونك ، وملاعب هواك

العيون الموسيقية التي لا يتسع غيرها لمكوتك الرحب الذي لا يعرف الحدود !

إشرب منها ما شئت ، ثم تصدَّق بما تُنبته تلك الدامةُ في جناتك ذوات الجنا من موسيقا وألحان ...

تصدق بهما على المدنفين والمكلومين والمحرومين

تصدق بألحانك على العيون المتهدِّدة ، والجوانح المشبوبة ، والحدق الباكية ، والأنفاس المحترقة ، والفم الظامئ ، والمهجة الغرثى ، والروح الصادية . . . على كل حمامة تنتظر ، وعلى كل ظبي غاب عنه أليفه . . . فألحانك غذاء هذه الأرواح جميعاً ، وهي عصارة العيون التي شربت ، والخدود التي رعيت ، والأنفاس الطاهرة التي اختلطت بأنفاسك ، وشاعت حميَّاها في أعطافك

أيها القلب الشاعر ! يا أكرم المخلوقات وأنبلها ! لن أفرغ اليوم منك ، لن أفرغ منك غداً ولا بعد غد ، فإلى صلاة قريبة ، وإلى لقاء قريب !

دريني خشبة

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ،
و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات :
الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقيمته خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد .